دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	دور تصميم المسكن العربي القديم في تحسين بيئة الإنسان
المصدر:	مجلة التواصل في العلوم الإنسانية والاجتماعية
الناشر:	جامعة عنابة
المؤلف الرئيسي:	قرفية، الصادق
مؤلفين آخرين:	قسوم، جمال الدين(م. مشارك)
المجلد/العدد:	ع26
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2010
الشهر:	يونيو
الصفحات:	1 - 20
رقم MD:	742290
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	الفنون التشكيلية، التصاميم الهندسية، المساكن العربية، العالم العربي، الإنسان، مستخلصات الأبحاث
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/742290

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

دور تصميم المسكن العربي القديم في تحسين بيئة الإنسان

الصادق قرفية

جمال الدين قسوم

قسم التهيئة العمرانية

جامعة باجي مختار– عنابة

الملخص

يهدف البحث إلى إيضاح الدور الذي تلعبه تصاميم المسكن في البلاد العربية قديما في تحسين بيئة الإنسان، من خلال دراسة المميزات والتصاميم العمرانية والتعرض لمكوناتها البنيوية والشكلية ومدى مقاومتها لمختلف العوامل، وكيف استطاع المعماري العربي أن يولي اهتماما متميزا في دراسة الجوانب المناخية والبيئية واختيار الحلول المناسبة لجعل الأنسجة العمرانية أكثر ملائمة رغم ضآلة الإمكانيات التكنولوجية. كما يتعرض البحث إلى نشأة وتطور المسكن العربي وكيف استطاع أن يوفق في استخدام مواد البناء ومعالجة العديد من المشاكل داخل المسكن وخارجه.

Résumé

Le but de cette recherche est de démontrer le rôle de la conception du logement arabe ancien afin de rendre meilleur l'environnement de l’homme .A partir de la conception des caractéristiques urbaines structurales, morphologiques et de ses composantes qui a résisté durant des siècles. Malgré le manque de moyen matériel et l'absence de matériaux qui répondent à ces difficultés, L'architecte arabe a réussi à adapter des solutions aux conditions climatiques et environnementales .Cette recherche est contrainte à l'amélioration de l'habitat arabe de l'époque, quant à la participation d’architecte à l'emploi de meilleurs matériaux qui répondent aux conforts internes et externes de cette construction.

مقدمة:

تتركز المباني التراثية التي نحن بصدد التطرق إلى مميزاتها وتصاميمها المعمارية في المواقع القديمة للمدن العربية.

ولقد لعبت عدة عوامل في رسم الخريطة المعمارية للمدن العربية ولا سيما التراثية منها: البيئية والظروف المناخية والخبرات المحلية، والتقاليد والعادات الاجتماعية والدينية، والأحداث السياسية وموارد البناء... حتى أن النمو الحضري للمدن العربية تأثر بالخريطة المعمارية للمدن و ذلك بمعالجته من تلك العوامل و وضع الحلول العملية لبعض المشاكل.

يمتاز الوطن العربي بمناخه المتطرف حيث يسوده مناخ حار وجاف في بعض مناطقه أو أقاليمه وبارد ممطر شتاءا، وتسقط على بعضها أمطار إعصارية انقلابية وتسود البعض الآخر رياح شمالية غربية لمعظم أيام السنة وذلك حسب ما تخضع له المدن العربية من أنماط مناخية.

كما تمتاز بعض مواقع المدن العربية بالارتفاعات والأخرى بالانحدار العام أو الانحدار التدريجي، وأدت الخصائص المذكورة للموقع القديم للمدينة إلى احتضان النسيج التراثي فيها، المشتمل على أحياء سكنية وعمائر خدمية كالأسواق وما تبعها من خانات وحمامات ومبان دينية (كالجوامع) وثقافية (كالمدارس).

حيث اتبع النسيج العمراني المتراص في أبنية المدينة المتمثل بتجميعها وملاصقتها ببعضها بجدران مشترك ولا يفصل بينها في أغلب الأحيان سوى الطرق والأزقة الضيقة المتعرجة.

ولقد عالج ذلك التكوين العمراني المتراص عدة أمور مناخية واجتماعية واقتصادية وإنشائية، فتجميع المباني ساعد على تقليل تعرض الأسطح الخارجية للمباني لأشعة الشمس صيفا، كما أدى إلى تضليل بعض المباني لما جاورها من مبان أخرى مما نتج عنه الحد من الطاقة الحرارية النافذة إلى داخل المبنى [1] كذلك فإن الخاصية المذكورة أدت إلى زيادة قوة المباني بفعل استناد بعضها البعض الآخر مما يطيل عمرها الزمني.

1. نشأة وتطور المسكن العربي وفضاؤه الخارجي:

كانت المساكن التي أنشأها العرب لم تزد عن كوخ أو كوخين من القصب بساحة داخلية محاطة على القصب، ثم بعد ذلك كانت الدور من الطين (طابوت مجفف في الشمس) ثم لم تلبث أن تطورت من الطابوت إلى المفخور (الآجر) [2] وازدادت تطورا بتطور الحضارات حيث أصبح المسكن العربي القديم يحتوي على تخطيطات وتصميمات تتناسب مع الظروف الطبيعية والمناخية ويعمل كذلك على تنقية الهواء

لأنه يعيق حركة الرياح المحملة بالأتربة والرمال خلال المدينة، ويقوم بالاحتفاظ بالهواء البارد المتجمع في طرقات المدينة أثناء الليل لفترات طويلة خلال ساعات النهار مما يساعد على تلطيف درجة الحرارة بتلك الفراغات صيفا، كما أنه يحد من سرعة الرياح الباردة شتاءا، فيساعد على دفء المباني الواقعة على تلك الأزقة والطرق (3). وكذلك فإن ضيق الأزقة يقلل من تعرض الحيطان لأشعة الشمس المنعكسة من أرضيتها. (4).

وامتازت الأزقة والطرق بكثرة القناطر المعقودة عليها، وقد حققت فوائد مناخية* كونها وسيلة لحماية المارة من تحتها من الحر الشديد صيفا والأمطار شتاءا.

"والجدير بالذكر أن بعض الميسورين وأرباب الحكم كانوا يوصلون بين دورهم الواقعة على جانبي الطرق بممرات تحتها لأسباب دفاعية واجتماعية ومناخية".

وبذا اختلفت النظرة في التكوين المعماري للمباني التي تحتويها عما هو في المباني البابلية والإغريقية والرومانية.. إذ أن هذه الحضارات كانت وفق أسلوب الشوارع المستقيمة والعريضة ذات التقاطعات المنتظمة والساحات الواسعة... دون النظر إلى ما يفرضه المناخ على هذه المدن من تخطيط. والذي لجأ إليه العرب بعد ذلك هربا من الظروف المناخية القاسية بجعل طرقهم ضيقة ومتعرجة ومبلطة بالحجارة المضلعة، وهناك ساحات غير منتظمة الشكل تتفرع منها أزقة ضيقة يصعب في بعضها أن يمر رجلان بجوار بعضهما فالمساكن متقاربة حتى أن الأسطح تكاد تتلاصق لحمايتها من أشعة الشمس في فصل الصيف... فضيق الممرات يجعلها مظللة طول النهار وتعرجها وانتهاؤها إلى نهاية مسدودة يؤديان إلى الحفاظ على الهواء البارد المتبقي من الليل إذ لو كانت هذه الممرات مستقيمة ومفتوحة لأدى ذلك إلى دفع الهواء البارد في طريقها من أول هبة من الرياح الساخنة.

2. التجربة الفراغية عند العرب في بناء المساكن:

حقق المعمار العربي تجربة فراغية رائدة بتفريغ المنزل في الداخل فخلق بذلك فراغا رئيسيا داخليا اتصل من الأعلى بالفراغ الخارجي وانساب مع الفراغ الداخلي لعناصر المنزل واندمج معه في وحدة داخلية قوية رائعة حققت كثيرا من النواحي الجمالية وزادت من قدرة أنواع الفراغ الوظيفية.

ولقد تمكن المعمار من تحقيق الاستمرار بين الفراغات الداخلية المحددة بالاستعمالات المختلفة مع تغيير أشكالها وحجومها في تفاوت حقق عنصر المفاجأة والتغيير بصورة فعالة فراغات لا يكفي استيعابها بالنظر إليها من نقطة ثابتة بل تتغير الصورة التي تراها كلما تغيرت نقطة النظر أثناء التجوال في أجزاء المبنى. (5)

إن كثرة من العناصر المعمارية ومبادئ التصميم الفراغي التي طبقت في البيت العربي التقليدي لم تزل سليمة ومعاصرة اليوم كما كانت بالأمس. (6)

ومن كل هذا يظهر أن المعمار العربي استخدم كل قابلياته ومهارته في تصميم مسكنه وذلك في تشكيل وتخطيط عناصره المعمارية وتنظيمها في الفراغ وتحديد حجومها الداخلية وفقا للغرض المنتفع بهذا الفراغ لأداء وظيفة معينة بغية الحصول على أكبر كفاءة للمبنى وتوفير الراحة الجسمانية بدراسة العوامل المناخية وزوايا الشمس وحركة الهواء وتحقيق احتياجات الإنسان العربي المادية والروحية مع إعطائه مختلف أنواع الاتصال بالفراغ الخارجي ومختلف الأجواء الداخلية والراحة النفسية. (7)

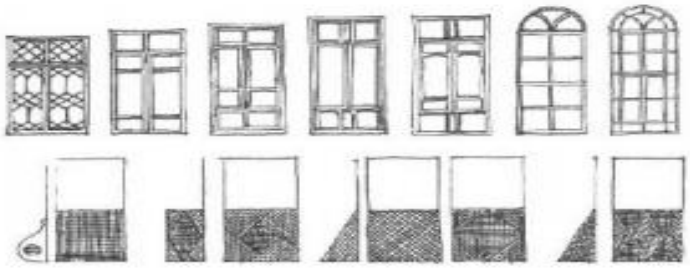

الشكل 1. بعض النماذج الأصيلة النوافذ الخشبية في الواجهات الخارجية لبيوت

1. 1. الفتحات الكبيرة:

لقد لجأ المعمار العربي إلى عمل الفتحات الكبيرة المطلة على الفراغات الداخلية والخارجية وملء هذه الفتحات الكبيرة بواسطة مخمل يسمى مشربية مصنوعة من برافق الخشب الدقيقة بمقاسات محددة من حيث أقطار هذه البرافق ومن حيث سعة الفتحات التي بينها.

إن المشربيات المظللة لبعض الطرق والأزقة هي الأخرى حلت مشاكل اجتماعية ومناخية. إذ ساعدت أهل الدار من الإطلال على الخارج دون أن يراهم أحد، ومنعت الإشراف المتبادل في البيوت التي تتقابل طوابقها العليا، وخففت من حدة الضوء، وحرارة الشمس صيفا داخل البيت، وسمحت بإدخال كمية كافية من الضوء والهواء إلى البيت، وساعدت على تصحيح الطابق الأرضي غير المتجانس إلى وضع متجانس وأصبحت الآن فكرة الشناشيل سمة ليست مميزة للعمارة العربية فحسب، وإنما لكل عمائر الأجواء الحارة والتي طورها الأوربيون وسماها المعمار الفرنسي (كوربوزيه) كاسرة الشمس وأدخلها في تصميم الأبنية الحديثة. (8)

وربما لقانون المعماري الذي أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بإتباعه المتضمن جعل الشبابيك الكائنة في الطوابق العليا عالية لأسباب اجتماعية وراء ابتكار المشربيات في العهود اللاحقة. (9)

وتستند الشناشيل عادة إلى كوابل متعددة التحدبات، وهي من العناصر المعمارية التي وجدت في الطرز السابقة للإسلام كالطراز البيزنطي، وتطورت في العصر الإسلامي في مشرق العالم الإسلامي ومغربه حتى بلغت أوج تعقيدها وجمالها الفني.

فالمشربيات تحتوي على مكان كان يسمح بتخلل الهواء، وكذلك لدخول أشعة الشمس المتناثرة، فهي مكان رطب للإنسان تماما. (10)

2. 2. الفتحات الصغيرة:

وجود الفتحات الصغيرة في أعالي الجدران والأسطح في معظم المباني ساعد على إدخال الضوء تعويضا عن الشبابيك التي انعدمت أو كادت في الحيطان السفلى لأسباب اجتماعية وأمنية، كما عملت على التخلص من الهواء الساخن المتجمع في أسفل سقوف الفراغات الداخلية وذلك بتحريكه قبل أن يحدث تأثير على درجة الحرارة الداخلية.

أما صغير الفتحات فقد ساعد على تقليل الطاقة الحرارية المتسربة داخل المبنى كما حد من قوة الإبهار بالفراغات الداخلية صيفا.

ووجدت مثل هذه الفتحات في العهد الإسلامي المبكر في مدينة الفسطاط (11) وتمتد بأصولها إلى الطرز المعمارية السابقة للإسلام.

3. واجهات المباني:

الجدران الخارجية:

ترقد الجدران الخارجية المشيدة بتدابير معمارية على شكل تجاويف في طول ارتفاع الجدران اصطلح عليها بالدخلات والطلعات وهذه المعالجة المعمارية المتمثلة في الدخلات والطلعات لها فوائد تتركز أساسا في أمرين:

الأول: إعطاء قوة ساندة إضافية للجدران.

الثاني: تكسير حدة العوامل والمؤثرات الطبيعية من أمطار ورياح التي تؤثر وتفعل فعلها على السطح المبسط المكون لمواجهات المباني، إذ تقلل هذه الدخلات والطلعات بلا شك من هذه العوامل وأن لها فائدة كبيرة في تخفيف حدة أشعة الشمس على مساحة الواجهة وبالخصوص أثناء فصل الصيف ذي الشمس الوهاجة.

4. استعمال مواد البناء:

لقد وفق المعمار العربي في استخدام مواد بناء ساعدت على معالجة كثير من المشاكل ولاسيما المناخية والإنشائية فقد أكثر من استخدام الأحجار الكلسية غير المهندسة والجص في كافة المباني التراثية نظرا لمزاياها الطبيعية ولكثرتها في بعض المدن العربية.

4-1. الحجارة الكلسية والجص:

تعتبر من المواد التي تمتاز بإيصالها البطيء للحرارة مع قابليتها الكبيرة على الاحتفاظ بها، ولهذا ساعدت في معالجة الظروف المناخية القاسية في بعض المدن.

فخاصية الإيصال البطيء للحرارة تعالج مشاكل المناخ صيفا حيث تكون درجة الحرارة مرتفعة وتبلغ أقصاها وقت الظهيرة ولفترة زمنية بعدها مما يسبب ضغوطا حرارية على المباني، ولذا فإن الأحجار تعمل على تأخير تسرب الحرارة إلى الداخل لوقت تبدأ درجة الحرارة بالخارج بالتدني.

أما خاصية الاحتفاظ بدرجة الحرارة مدة طويلة ساعدت على معالجة المناخ شتاءا لأنها تعد مصدرا للإشعاع الحراري داخل المبنى وخارجه خلال الليل مما يحد من برودة الطقس. (12)

ويمكن الحصول على حرارة معتدلة داخل المباني، هذا بالإضافة إلى كون الحجارة غير المهندسة تترك بينها وبعض الفراغات أثناء بنائها مما يساعد على عملية العزل الحراري، ومن المزايا الأخرى لهذه الأحجار عدم مساعدتها على نقل الصوت بالدرجة نفسها الملاحظة في المواد الأخرى، كما أنها أقل قابلية للتمدد والتقلص جراء التبدلات الحرارية. (13) وتساعد على زيادة سمك الجدران أكثر من المواد الأخرى والذي بدوره يسهل عملية العزل الحراري ويؤدي إلى متانة المباني لتستقيم طويلا ولعدة أجيال وهي من المزايا البارزة في العمارة العربية.

والجدير بالذكر أن سمك جدران المباني من المزايا التي تمثلت في الطرز المعمارية القديمة ولاسيما في الجزائر والعراق ومصر والجزيرة العربية وامتد إلى المباني العربية الإسلامية.

4. 2. استعمال مادة اللبن:

اعتمد العرب على اللبن في تشييد المباني المختلفة لكونها مادة محلية متوفرة بالإضافة إلى أنها خير مادة عازلة، حيث البناء بهذه المادة قد أعطى حماية مناخية وجوا معتدلا للإنسان، ولعل هذا الأمر جعله يعطي أهمية خاصة إلى البناء ويفكر تفكيرا جديا في كيفية الحفاظ عليه. (14)

ومن المعلوم أن اللبن لا يوضع على مقربة من المياه الجارية والأماكن التي تتعرض باستمرار إلى الرطوبة.

ولقد عرف المعمار العربي كذلك أن اللبن إذا حمي بسقوف فإنه يستديم مدة أطول. فلذلك نراه يعمل على توفير واقيات بنائية مختلفة في نهاية الجدران من الأعلى لحجب تأثير الأمطار والشمس والمؤثرات الأخرى على وجوه الجدران.

وعند استخدام اللبن في منشآت بنائية تحت الأرض فإنه لم يعول عليه كمادة أساسية بل اعتمدوا على تشييد الجدران والأقواس الأساسية بمادة الحجر أو الطابوت، وفي هذه الحالة استعمل اللبن كمادة لملئ الأماكن والفراغات الواقعة بين هذه المنشآت الصلبة.

5. المعالجات المعيارية للمسكن العربي القديم:

أدرك المعمار العربي أن جدران الأسوار السميكة معرضة إلى التشقق والانسلاخ من جراء عدة أسباب منها تفاوت درجات الحرارة وتسرب الأمطار إلى داخلها، ولتفادي هذا التخريب الأكيد فقد عزز المعمار الإنشائي العربي صنوف اللبن المكونة للجدران بطبقة من الحصير المعمول من القصب وهذا الحصير يطلى عادة بمادة الزفت وأساسي لمنع تسرب الرطوبة والمياه إلى داخل الجدران من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه المادة تمنع وصول الحشرات والديدان الناخرة لمادة اللبن. كما استخدام الرمل بطبقة خفيفة تحت اللبن لمنع الرطوبة.

يتضح مما سبق تنوع المادة الأولية لبناء البيوت العربية القديمة والمؤلفة من الطين واللبن والحجارة والكلس والأخشاب.

وهذه المواد سبق للبناء الجزائري القديم أن استخدمها في بناء مساكنه، كما يتضح لنا ذلك في بعض المدن الداخلية والمدن الصحراوية حيث عرف استخدام اللبن على نطاق واسع في البناء بحجوم وأنواع متنوعة.

5. 1. سطوح المباني السكنية:

5. 1. 1. السطوح المستوية:

لقد فرض الجو المحلي للمنطقة على المهندس أن يعطي طرازا مميزا للسطوح المستوية لمساكننا القديمة، حيث يمثل سطح المسكن العربي القديم الجزء الوحيد من المسكن، بعد الفناء الداخلي المعرض لأشعة الشمس المباشرة ولم يصمم هذا الجزء من الهيكل البنائي للمسكن كظاهرة معمارية تركيبية فقط، بل

جاء لكي يصبح قطاعا معيشيا، يستعمل للنوم أثناء الليل خلال فصل الصيف الذي يحتل عادة فترة طويلة من السنة. (15)

5. 1. 2. السقوف المقببة

امتازت معظم الأبنية التراثية في المدن العربية بالسقوف المقببة للحد من الحرارة المتسربة داخل المباني (بسبب عدم تعرض سطحها المنحني بالكامل لأشعة الشمس خلال ساعات النهار صيفا، خلافا لما يحدث بالنسبة للسطوح الأفقية وبالتالي يقل الضغط الحراري على الفراغات الداخلية للمبنى ويحميها من التقلبات الجوية في الخارج) كما أن حركة الهواء تنشط ما بين الجزء المظلل الداخلي والجزء الخارجي المشمس منها مما يساعد على التخلص من الهواء الساخن الملاصق للجزء المشمس ويعمل على التخلص من مضاعفاته الحرارية باستمرار. (16)

كذلك فإن هذا الأسلوب المقبب للسطوح يساعد على تخفيف القوى الضاغطة على الحيطان والأسس التي ترتكز عليها، وتكون أكثر تماسا من السقوف المستوية.

5. 2. الفناء الداخلي

يشكل الفناء وحدة هامة وأساسية في تصميم البيت العربي القديم بل هو نواة تصميم مساقط معظم العمائر على اختلاف أنواعها. (17)

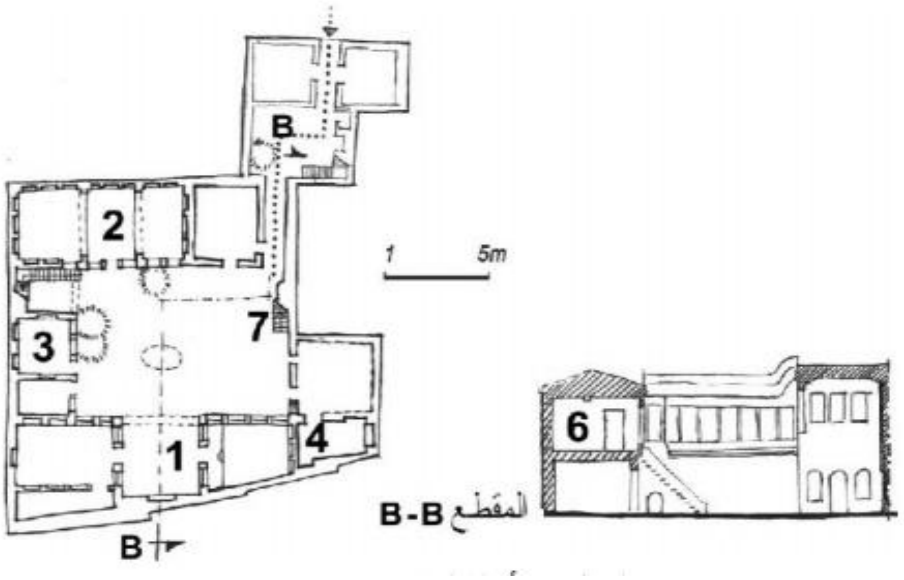

المقطع B-B

الشكل 2. أمثلة لعقارات ذات باحثين

ولهذا الجزء من البيت أهمية كبيرة منها تلطيف حدة الضوضاء كما كان بمثابة مرشح للهواء الذي كثيرا ما يحمل الغبار والأتربة، ويساعد على تخفيف ضوضاء الشوارع والطرق وكان يختزن الدفء في الشتاء إذا أغلقت الأبواب والفتحات الخارجية لتمنع مرور التيارات الهوائية، وفي موسم الصيف يساعد على تلطيف شدة الحر كما أنه يبعد سكان البيت عن أعين المارة.

كما أنه أيضا يساعد على تحسين البيئة المناخية في هذا الجزء من المسكن ويشكل محلا لاجتماع العائلة مما يساعد على ترابطهم الاجتماعي وتوحيد الأسرة مع بقية الأسر ضمن نطاق المجتمع، وهذا ما يجب إدخاله في تخطيط المدن المعاصرة.

وتطل على الفناء الداخلي أيونات الجلوس بحيث يرتفع الإيوان بارتفاع البيت ويعد بمثابة فناء مسقف يستخدم في المناسبات الخاصة للعائلة وذلك لتلطيفه درجات الحرارة في الصيف بفعل التيارات الهوائية المتحركة وقلة الضغوط الحراري بينما الغرف الجانبية تستخدم من قبل العائلة للراحة والنوم وفي حالة وجود أكثر من جناح للبيت تبنى الأجنحة بصورة متقابلة عادة لمعالجة مشاكل المناخ وتفضل الجهتين الشمالية والجنوبية فالأجنحة الشمالية تكون شتوية لأنها تتعرض لأشعة الشمس في حين توافق الأجنحة الجنوبية فصل الصيف لأنها تتفادى شمس العصر الشديد. (19)

وقد لازم الفناء معظم المباني في أغلب الطرز المعمارية القديمة ولاسيما التي سادت في الوطن العربي واستخدم لنفس الأسباب.

5. 3. الأروقة:

من أقسام المسكن أيضا الرواق، ورواق البيت ما أطاف به وتقام الأروقة في البيوت في مقدمة الأواوين التي سبق التحدث عنها ولقد استخدمت بصورة عامة وقاية للأبنية التي تتقدمها في الحر الشديد صيفا والبرد القارص والأمطار شتاءا.

وترجع ظاهرة استخدام الأروقة في العراق إلى عصور بعيدة حيث وجدت أروقة في بعض بيوت قرية حسونة (20) ثم تمثلت بعد ذلك في البيوت السومرية (21) والعهود التالية.

5. 4. السراديب

استخدمت السراديب من قبل ساكنين البيت لاستعمالها للقيلولة، والسراديب تتفاوت في عمقها وتتباين مساحتها تبعا للغرض التي أنشأت من أجله وتميزت بعض السراديب الواقعة تحت الأجنحة ومرافق البيت بارتفاع سقفها قليلا عن مستوى الفناء بغية استحداث بعض الشبابيك لغرض التهوية والإضاءة.

كما استخدمت السراديب لخزن الحبوب والمواد الغذائية والوقود ومزاولة بعض المهن كالحياكة وبعضها كمربط للحيوانات.

أما السراديب التي تستخدم للقيلولة فعادة ما تزود بملاقف هوائية (باد كير) تصل بينه وبين السطح أو الطابق العلوي لتلطيف درجة الحرارة، وملاقف الهواء استعملها الأشوريين والبابليين في العراق القديم [22] كما استخدمها المصريون القدماء، وتطالعون في العصر الإسلامي في قصور سامراء [23]، فهي أي ملاقف الهواء "تسمح لأكبر كمية من الهواء بالدخول إلى المسكن، حيث أدرك المهندس العربي بأن الهواء لا يكفي لوحده لتلطيف جو مسكنه، والهواء يجب أن يكون متحركا وبسرعة معتدلة، إذ أن مساعدة تكوين حركة للهواء في داخل المسكن تؤدي إلى شعور الساكن بالانتعاش بحكم سرعة عملية تبخر العرق من مساماته الجسمية، وهذه الملاقف تعمل حتى عندما يكون الهواء ساكنا بطريقة معاكسة لطريقة تأثير المدخنة" [24].

6. مبدأ التكامل بين الإطار السكني والجانب الوظيفي:

بعد ما سبق التعرض إلى مكونات المسكن العربي القديم ارتأينا التطرق إلى تبيين عناصر التكامل والتوافق بين الاستخدام السكني والإطار الوظيفي، لاسيما وأن التنظيم المجالي للمدينة العربية، يعكس فلسفة خاصة وذلك من خلال توطين جل الوظائف في الجزء المركزي وذلك لأسباب تتلخص أساسا في جعل المجال المركزي، نطاق اجتماعي يلتقي فيه الأهالي كما أنه يبرز العامل الأمني للحفاظ على خصوصية المدينة وذلك من خلال استبعاد الأجانب من التوغل في المدينة، وإن كان هذا التنظيم والتناسق يعكس العادات والتقاليد والجانب الديني، وفي هذا الصدد نجد أن كل المباني التي تخدم الجانب الوظيفي، قد اعتمد في إنشائها على تقنيات تقليدية لاسيما مواد البناء.

تتفاوت مساحة الدور التراثية في المدينة العربية وعدم انتظام مواقعها على الأزقة ويرجع السبب إلى انعدام السيطرة البلدية أو لكونها غير واضحة في القرون السابقة هذا بالإضافة إلى التلاعب الذي كان يمارسه المتنفذون بأوضاع العقارات في مناطق سكناهم، وبمرور الزمن فقد تغير التنظيم الداخلي للدور السكنية القديمة، أضف إلى ذلك أن الترابط الاجتماعي يجعل من غير المستطاع أن يترك السكان الفائضون محلتهم، بل يحاول سكنة المحلة استيعاب الزيادة بواسطة بيع جزء من عقاراتهم إلى أبناء جلدتهم وعلى مر الزمن وبتكرار هذه العملية فإن التصميم والمساحة الأصلية لدورهم وأملاكهم سوف تتغير باستمرار وينتج عنها أشكال غير منتظمة، ولهذه الأسباب فإن التنظيم الداخلي للدور السكنية في المدن التراثية لم يأخذ شكلا هندسيا منسقا على امتداد الطرق والأزقة التي تقع عليها وإن ساعدت على حل مشكلة اجتماعية.

والجدير بالذكر أن الطرقات وأراضي البناء لم تكن متعرجة في المدن التي أسست في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي، ولاسيما الأمطار كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان [25]، بل كانت وفق التخطيط الهندسي الذي أوصى به الخليفة عمر بن الخطاب، حيث كانت الشوارع التي تفصل خطط المدن متوازية، عرض الرئيسية منها أربعون ذراعا والمتوسطة عشرون ذراعا والأزقة سبعة أذرع، كما أن النظام المتراص هو السائد [26] وربما كان ذلك لأسباب أمنية واقتصادية واجتماعية. [27]

وتمتد أصول التجمع المتراص في المباني والتي تتخللها الأزقة الملتوية إلى الطرز السابقة ولاسيما في الجزائر ومصر وآسيا الصغرى.

6. 1. الأسواق:

تتوطن بمركز المدينة وتمثل المجال الحيوي والاقتصادي على مستوى المدينة [28] وقد نشأت الأسواق في المدن العربية القديمة منذ فترة طويلة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أنشأ سوقا للمدينة قريبة من دورها، وكانت هذه السوق بداية لتطور عمراني استمر بعد ذلك في المدن الإسلامية في عصورها المتتابعة.

كما أن هذه الأسواق تمتد من المركز إلى المناطق السكنية بشكل مترابط وفق نظام متسلسل ومتدرج ليقدم أفضل الخدمات للسكان. [29] كذلك التصميم المعماري للأسواق يتميز بالامتداد الطولي المتوازي لوحدات متماثلة من الدكاكين المتلاصقة على جانبي طرق وممرات ضيقة وملتوية كانت تعلوها سقوف عالية مقببة ذات فتحات جانبية للتهوية والإضاءة. وقد استعيض عنها مؤخرا بسقوف معدنية

مسطحة أو ذات هيئات جملونية وارتفاع السقوف عالج مشكلة مناخية وهي تخفيف حدة الحرارة صيفا. (30) كما أن فكرة بناء الأسواق المغطاة التي نشأت في مدننا القديمة تجمع فيما بينها طابعا واحدا يتميز بالشوارع الضيقة المسقوفة لاستعمال السابلة كما هو الحال في أسواق بعض المدن العربية كالجزائر وتونس وسوريا ومصر وتحمي هذه الأسواق المارين من وهج الشمس المحرقة في الصيف والأمطار في الشتاء. (31)

وفي مدننا القديمة نجد بجانب الأسواق المسقفة أخرى خالية من السقوف وأن عمل ذلك يكون مقصودا حيث أن تعتريتها يكون ضروريا كسوق الصفارين وسوق الصاغة وذلك لأن طرق النحاس ودق المسامير واستعمال النار والعقاقير المثيرة للدخان كل ذلك يجعل هذه المهن شاقة للغاية بل مستحيلة لو كانت أسواقا مغطاة. (32)

6. 2. الحمامات والينابيع:

يعتبر الماء عنصرا هاما تتسم به المدينة القديمة ويبرز من خلال تواجد الينابيع والحمامات، بالإضافة إلى تواجد النفورات ضمن الفناء الداخلي للدور لتلطيف الجو من خلال رفع درجة الرطوبة. (33)

أما بالنسبة للحمامات العامة فقد وجدت في منطقة الأسواق لاستخدامها من قبل روادها حيث غلبت على الحمامات الخاصة لعدم وجود إسالة للماء آنذاك ولحاجتها إلى وقود لا يمكن تهيئته بسهولة. وقد صممت بشكل يضمن الانتقال التدريجي من البرودة إلى الحرارة وبالعكس شأنها في ذلك شأن معظم الحمامات المتماثلة في الطرز القديمة ومثيلاتها في البلاد العربية الإسلامية الأخرى. فاشتملت على محل (خلع الثياب)، ثم المسبح وحجرة تفصل بينهما الغاية منها عدم الانتقال المفاجئ من البرودة إلى الحرارة وبالعكس.

وتغطي جميع أقسام الحمامات القباب ويتميز المسبح بتكونه من ساحة وسطية تحف ثلاثة أواوين مقببة في كل منها ثلاثة أحواض بالإضافة إلى محل الدواء وتغطي كل ذلك قبة مشتركة فيها شبابيك عالية لإدخال الضوء.

وغالبا ما يستخدم في بناء الحمامات الآجر والحجر لأن موادها تتحمل الماء وبذلك يتناسب التخطيط مع مواد البناء في أداء وظيفة الحمام التي تعتمد على الماء. (34)

واقع حال المدينة القديمة لعنابه:

ارتأينا الإشارة إلى عينة تعكس واقع هذه المدن وتعكس التحديات التي تواجه لحفاظ على خصائصها كمدينة عربية ألا وهي، المدينة القديمة لمدينة عنابة.

فبالنسبة لتكوينها العمراني نجدها تتشكل من مباني متوسطة العلو بالأسقف من القرميد الأحمر، تتصف المساكن بكثافتها المتوسطة، تتكون معظمها من مباني متوسطة تتوزع على مسالك ودروب مرصفة بالحجارة والتي أصبحت حاليا تعاني من التقهقر لغياب صيانة التهيئة اللازمة. (35)

إن احتكاك الحضارات المختلفة أدى إلى امتزاج طرزها التي يمكن تلخيصها كما يلي: (36)

الطراز الأول: الطراز البربري، العفوي، الذي بدأ مع بداية نشأة المدينة.

الطراز الثاني: وهو الطراز الأندلسي المربع ويتمثل في جامع سيدي أبو مروان.

الطراز الثالث: وهو الطراز التركي المستدير الانسيابي المزخرف ويتمثل في جامع الباي الواقع بساحة 19 ماي 1955.

ولقد تم امتزاج طرز العمارة بحكم الدين والعادات المتقاربة، وانصهرت في بوثقة واحدة، فتأثرت مساكن المدينة بالطراز المعماري التركي، الذي تزاوج مع الطراز البربري، فظهر التأثير واضحا في انتظام الشكل المربع إلى جانب التأثيرات المركبة على الوحدات المعمارية التي امتزجت مع الطراز الأصلي والطراز الأندلسي وأصبحت المدينة القديمة ذات طراز واحد ممتزج هو الطراز العربي الإسلامي.

وتجدر الإشارة إلى أن الخصوصية العمرانية والمعمارية للمدينة القديمة في مكونات المباني التي تتشكل أساسا من (37):

- المدخل- الباب: مزخرفة ونقوش اعتماد النحاس والحديد وبأشكال مقوسة يفصل البيت علن العالم الخارجي.
- السقيفة- مجال يتواجد عند مدخل المبنى، يستخدم لاستقبال الضيوف وفسح المجال لأهل البيت، يتواجد به منبع الماء ويتميز بمناخ ملائم.
- المجلس- بيت الضيوف: مجال مخصص لاستقبال الغرباء والضيوف وأحيانا لعقد المجالس.

بالرغم من المدينة القديمة ضمن مدينة عنابة تعد تراث عمراني ومعماري يستوجب الحفاظ عليه إلا أنه وبفعل الإهمال ونقص الخبرة وقلة عمليات الترميم ونقص التشريعات فإنها أصبحت تعاني من التقهقر والتدهور بشكل بارز مما يستدعي إعادة النظر.

صورة 01: تقهقر المباني في ظل غياب عمليات الترميم

7. الاستنتاجات والتوصيات:

إن أهم الاستنتاجات التي يمكن التوصل إليها مع أهم التوصيات هي كما يلي:

مما تقدم يتضح لنا بأن المميزات والتصاميم المعمارية التي تمثلت في المباني التراثية لعبت دورا كبيرا في النمو الحضري، لأنها أخذت بعين الاعتبار كافة الأمور المؤثرة في حياة السكان ولاسيما المناخية منها وعالجت المشاكل الناجمة عنها ووضعت الحلول اللازمة لها.

حيث تكيف المعمار العربي مع طبيعة البيئة فاختار المخططات التي تتناسب مع الظروف المناخية لمقاومة الرياح والرمال والأتربة واختار مواد بنائية قادرة على مطاولة الظروف الطبيعية ولهذا فلا عجب أن نجد بعضها معمولا بها حاليا.

كذلك يمكن الانتفاع بالمميزات والخصائص العامة للمسكن العربي القديم في الوقت الحاضر رغم ما حدث من تغير في مواد البناء وتطور في النواحي الاجتماعية والاقتصادية وما حدث كذلك من اكتشافات علمية وتجهيزات حديثة كالتكيف الهوائي، رغم ذلك ما زالت تستخدم بعض مواد البناء في وقتنا الحاضر، والمساكن العربية القديمة لا تزال صالحة مؤدية خدمة سكنية وملبية لاحتياجات الكثير من الأفراد رغم قدمها.

أيضا نجد بعضها ما زالت تستعمل كالسراديب والنظام المتراص والأروقة وأجنحة الاستقبال المفصولة عن بقية أجنحة الدار ومشتملاته والحديقة التي تتقدم البيت أو تدور حوله والتي تقوم مقام الفناء التراثي وتؤدي بعض وظائفه وكثرة استخداماته الأحجار الكلسية والجص في الملاط.

بالإضافة إلى تأمين التهوية والإضاءة الطبيعية وتوفير البيئة الصالحة لحياة معيشة الإنسان التي يمكن ملاحظتها في تجميع الأبنية بشكل متراص وما ينتج عنها من ممرات ملتوية وتقليل التعرض لأشعة الشمس للأسطح الخارجية وتطبيق فكرة الفناء الداخلي وأحواض المياه.

وكان اهتمامهم كبيرا في دراسة الجوانب البيئية والمناخية والحلول التي أوجدها الأسلاف في هذا المضمار مثل استعمال المواد الرخيصة المتوفرة محليا كالطين المجفف بالشمس من كل ذلك نرى أن الأحياء العمرانية القديمة كانت أكثر ملائمة للمناخ من المشاريع المعاصرة كما توفرت فيها الأجواء المناسبة للمعيشة بشكل أفضل وهذا يمكن تقديره إذا أخذنا بنظر ضآلة الإمكانيات التكنولوجية التي كانت متوفرة عند أسلافنا لمعالجة الظروف المناخية السائدة كالتدفئة والتبريد.

وفي النهاية نؤكد على المحافظة على المسكن العربي القديم واحترام خصوصيته طبقا للعادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت تزخر بها مجتمعاتنا القديمة مع محاولة توظيفها في الأحياء المعاصرة لتتميز عن باقي المجتمعات.

المراجع

1. محمد الخولي، المؤثرات المناخية والعمارة العربية، جامعة بيروت العربية 1975، ص 46.
2. صالح أحمد علي، خطط البصرة، مجلة سومر/ مجلد 8، بغداد 1952، ص 302.
3. محمد الخولي، مصدر سابق، ص 46.
4. حيدر كمونة، مصدر سابق، ص 14- 15.
5. حيدر كمونة، الأسلوب الأمثل للمحافظة على التراث المعماري في المدينة العراقية، ص 5.
6. حيدر كمونة، الأسلوب الأمثل للمحافظة على التراث المعماري في المدينة العراقية، ص 7.
7. محمد الخولي، المصدر السابق، ص 34.
8. حميد محمد حسن، البيت العراقي في العهد العثماني، رسالة ماجستير (غير منشورة، قدمت لجامعة بغداد 1982 ص 305).
9. فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ط 1، الرياض، 1982، ص 9.
10. حيدر كمونة، مصدر سابق، ص 61.
11. فريال مصطفى، البيت العربي في العراق في العصر الإسلامي، بغداد 1983، ص 16.
12. محمد الخولي، مصدر سابق، ص 30.

13. حسن الباشا، تاريخ الفن في العراق القديم، ط 1، القاهرة، 1956، ص 53.

14. طارق عبد الوهاب مظلوم، البيئة والمعمار في بلاد وادي الرافدين واستعمال مادة اللبن، مركز إحصاء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد/ الدورة القطرية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، ص 301.

15. حيدر كمونة مصدر سابق ص 62.

16. محمد الخولي، مصدر سابق ص 301.

17. صلاح حسين العبيدي، كلية الآداب، جامعة بغداد (م/ 1)، أنظمة المدينة العربية، ص 7.

18. حيدر كمونة، أهم العناصر التخطيطية والمعمارية لمكونات المدينة العربية القديمة ص 103.

19. حيدر كمونة، أهم العناصر التخطيطية والمعمارية لمكونات المدينة العربية القديمة ص 103.

20. حميد محمد حسن، البيت العراقي في العهد العثماني، رسالة ماجستير، جامعة بغداد 1982، ص 302.

21. حميد محمد حسن، مصدر سابق، ص 237.

22. فؤاد سفر، حفريات تل حسونة، سومر، 1945، ص 34.

23. حميد محمد حسن، مصدر سابق، ص 304.

24. حيدر كمونة، مصدر سابق، ص 61.

25. فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ط 1، الرياض 1982، ص 83.

26. عيسى سلمان وآخرون، العمارات العربية الإسلامية في العراق (مدن ومساجد) بغداد 1982 ص 22.

27. يعتقد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) جعل الحد الأدنى لعرض الشارع 10 أقدام بحيث يمكن لحيوانين محملين أن يسلكا الطريق في وقت واحد، وقد طبق الخليفة عمر هذا المقياس على شوارع البصرة والكوفة كما استعمل في بغداد أيضا بينما جعل عرض الشارع حوالي 20 قدما وكذلك حددت مسافة قدرها 100 قدم للوحدات السكنية بين الشارع والمبنى.

28. Claude Challine, Les Villes du Monde. Arabe, édition collection géographique, année 1998, pp. 189.

29. حيدر كمونة، مصدر سابق، ص 62، ص 6، ص 11.

30. فبرنر كاسكل، الأخيفر، ترجمة د. خالد إسماعيل علي، سومر، م 25، سنة 1965، ص 17.

31. حيدر كمونة، مصدر سابق، ص 62، ص 6، ص 11.

32. حيدر كمونة، مصدر سابق، ص 62، ص 6، ص 11.

33. Peirre Laborde, Les Espaces Urbains dans le Monde, collection fac géographique, année 1989. pp. 239.

34. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مصدر سابق، ص 18.

35. مخطط شغل الأرض للمدينة القديمة عنابه، 2001.

36. مديرية التعمير لولاية عنابه 2006.

37. تحقيق ميداني 2008.

38. صيد أحمد سفيان، التوسعات العمرانية للمجمع العنابي، رسالة ماجستير 2000 جامعة قسنطينة.